

دور الزوايا في إصلاح ذات البين

الزاوية القاسمية بالهامل نموذجاً

الأستاذ الشيخ محمد المأمون القاسمي *

إلى صدورهم سيلاً . فكلما ادلهم الظلام من حول المؤمنين ، ازداد إيمانهم بحاجة الناس إلى النور ! وكلما زحف تيار الباطل ، ازدادوا قدرة وإصرار على مقاومته ، وكلما أمعن الفساد في الظهور والانتشار ، امتلأوا يقيناً بضرورة الإصلاح "إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون" (يوسف. 87) "ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون" (الحجر. 56)

إن من يستضيء بنور الله ، ويهتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخطئ الصواب.

بهذه النظرية الإيمانية ننظر إلى مسعى المصالحة الوطنية ! ومن هذا المنطلق كانت دعوتنا دائماً إلى التقريب والتوفيق ، وإصلاح ذات البين . لقد قامت دعوة الإسلام على ركيزة الأخوة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه ، "لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"

إن الجزائر تمر بظرف تاريخي يتطلع فيه شعبنا إلى غد مشرق ، وفجر قريب ، إن شاء الله يؤذن باقتراب انفراج ، والتئام شملنا ، واستعادة ألفتنا ، بعد أن تفرقت بنا السبل ، واشتدت بنا البلايا والمحن ! وكادت أن تعصف بنا الفتن ، لولا أن تدركنا الله بلطفه ، وقبض للجزائر رجالاً مخلصين من أبنائنا ظلوا ثابتين على الحق ، يحدوهم الأمل ، ويعمر جوانحهم الرجاء ، ولا يعرف ظلام اليأس

* شيخ الزاوية القاسمية بالهامل بوسعادة، عضو المجلس الإسلامي الأعلى.

عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين" (آل عمران.159)

إن الإصلاح بين الناس دعوة الأنبياء والمرسلين ، وسبيل العلماء الربانيين ، وطريقة القادة المهدين . لقد أمرهم الله بنشر السلام ، وبث الإصلاح ، والتوفيق بين الناس ، حتى لا تتعارض مصالحهم ، وتتضارب أهواؤهم وحتى يبقى مجتمعهم قوي الأركان ، متماسك البنيان

وكل مسلم يطلب منه أن يساهم بما يستطيعه من سبل الإصلاح فالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتعليم العلم النافع ، من أعظم هذه السبل ، ومنها الإصلاح بين المتخاصمين المتقاطعين ، ومنها الإصلاح بين الزوجين المختلفين ، لأن الإصلاح بين الزوجين تبني عليه البيوت ، وتترابط به الأسر ، التي هي أساس المجتمعات .

والسلام ، وكل دعوة إلى الإصلاح ، وتحقيق الأخوة والوئام ، هي من صميم دعوة الإسلام ، يقول تبارك وتعالى: "وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" (المائدة.02) لقد بينت هذه الآية الكريمة مبدأ هاماً من مبادئ الإسلام ، هو التعاون في أمور الخير والحق والصالح ، وعدم التعاون في أمور الشر والبغي والفساد.

فالسعي للإصلاح بين الناس ، إذا تفاسدوا ، والتقريب بينهم إذا تباعدوا ، والتوفيق بينهم إذا اختلفوا ، كل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فقد استجاب لله ، وتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في هدايته وإصلاحه ، وفي رحمته وإحسانه ، وفي صفحه و عفوهِ . وهو الذي وصفه ربه بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وتشهد سيرته بأصالة هذا العنصر في رسالته ، كما تشهد بذلك مواقفه التي تفيض بالرحمة واللين ، والصفح والإحسان . قال تعالى: " فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف

ما بين الناس، وعنده القدرة على تسويته. بل إن بعضهم يوقد الفتنة، ويحرض بين المتنازعين، ويحرضهم على النزاع، ويلقن كل طرف ما يتخذه ضد خصمه! وهؤلاء مغاليق الخير، مفاتيح الشر، وهم جند للشيطان: "أولئك حزب الشيطان. ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون" (المجادلة: 19)

وفساد ما بين الزوجين يترتب عليه فساد البيوت، وتفكك الأسر، قال عز وجل: "وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما، والصلح خير..." "وإن تصلخوا وتتنقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً" (النساء: 127-128)

من المعلوم أن من أهم شعب رسالة الزوايا السعي للإصلاح بين الناس، والعمل لتأليف القلوب، وتنقيتها من أدران العداوة والبغضاء، وتخليصها من دواعي الفرقة والخلاف.

ولا يخفي على الدارسين أن تاريخ الجزائر العلمي والثقافي والاجتماعي، وتاريخها الوطني والجهادي، قد ارتبط بالزوايا ارتباطاً وثيقاً. لقد كانت قلاعاً حصينة لعقيدة الأمة وقيمها الروحية والوطنية، منها تخرج العلماء والفقهاء والدعاة، ومنها انطلق قادة الجهاد وطلائع المجاهدين والمعروف عن هؤلاء المتخرجين من الزوايا عبر الأجيال والعصور، إلى يومنا هذا، أنهم مثلاً، في المجتمع قيم الإسلام

ومن الأولويات المطلوبة من المسلمين، الإصلاح بين الفئات المتنازعة، والقضاء على أسباب الفتنة، بالعدل، حتى يستتب الأمن وتحقق الدماء، ويؤخذ على يد المعتدي، وينصف المعتدى عليه. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بسيرته، كيف يجب على المسلمين المسارعة إلى درء الشر عن جماعتهم. فقد روي أنه، صلى الله عليه وسلم، لما بلغه ما حصل بين بعض طوائف المسلمين من النزاع خرج إليهم بنفسه، ومعه بعض أصحابه، وتأخر عن الصلاة بالناس، بسبب ذلك، حتى سوى ما بينهم من النزاع، ونحن قد نجد في مجتمعات المسلمين، من يتقاعس عن القيام بمهمة الإصلاح، ويترك النزاع يفسد

في الماضي، بالوسائل المتاحة، وحسب الظروف والأوضاع والإمكانات، فإنها مطالبة اليوم أن تستمر في الدعوة إلى سبيل الله، على منهج الله، نريد أن تظل دعوتها هادية ورسالتها جامعة، تلف حولها القلوب، وتتألف بها الأرواح، وما ينطلق منها، وباسمها، لا يكون إلا صلاحا وفلاحا وهداية للناس إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

إن مسعى الزوايا للإصلاح بين الناس يشمل الأفراد، والجماعة والمجتمع، كل حسب مقتضيات الحال، ودواعي الصراع والنزاع ويمتد هذا المسعى، عبر الزمان والمكان، من الخلافات العائلية، الى النزاعات العقارية إلى الثارات القبلية، إلى تلکم الصراعات التي تتكرر حالاتها في كل دورة من الانتخابات المحلية، وقد اتسع نطاق هذا المسعى، وتعددت وسائله خلال سنوات المحنة، التي تميزت بانحراف فئات من مجتمعنا عن طريق الرشاد وافتقارهم الرؤية الصحيحة، في ظل فراغ روحي، واغتـراب

ومبادئه في شموله وتوازنه، وفي وسطيته واعتداله، وفي سماحة دعوته، وذلك بفضل التربية الإيمانية المتكاملة التي تلقوها في الزوايا، وتفقههم في العلوم الشرعية، على أسسها الصحيحة وكان الواحد منهم، في محيطه الاجتماعي، مرشدا، ومعلما، ومصلحا بين الناس. وهذا ما يفسر احتفاء الجماهير المؤمنة بهؤلاء الرجال، وثقتهم في علمهم، واطمئنانهم إلى رأيهم، والاستجابة لدعوتهم.

ولعل من ناقله القول التذكير بأن الزوايا، التي هي موطن رسالتنا وموضوع حديثنا، هي تلك القلاع النورانية التي أسست على التقوى من أول يوم، وتسخر جهودها لإقامة دين الله، ونشر دعوته وخدمة كتابه، واصلاح الناس بهديته، ولا يتصدر لعمارتها إلا من تطهر وتدرج بالتقوى والعلم، وطهارة القلب والضمير، ونظافة اليد واللسان، وكانت هجرته لله، وعمله خالصا لوجه الله.

وإذا كانت الزوايا قد أدت رسالتها،

وقويت لديهما إرادة الانتقام، ولم تجد محاولات التهذئة والإصلاح بينهما نفعا، واضطرت الجهات المسؤولة الى الفصل بينهما بقوة السلاح، واستمر الوضع المتوتر أسابيع معدودات، مما دعا الوالي الذي تقع المنطقة في دائرة اختصاصه، الى التماس التدخل من شيخ الزاوية لتسوية النزاع، وهوما سارع الشيخ الى تحقيقه فوفقه الله في مسعاه، وأعلن عقد الصلح، في رحاب الزاوية، في يوم مشهود، حضره مئات من رجال الفريقين، تصالحوا وتسامحوا، بعد أن نزع الشيطان بينهم، ومكن لروح العداوة والانتقام في نفوسهم.

المثال الثاني: الذي نعرضه من الصراعات والتنافسات الضيقة، التي تتكرر، بمناسبة الانتخابات المحلية، حيث تترك كل دورة منها آثارها السيئة في بعض الفئات، وتحدث فيها تصدعات وانقسامات، تتحول مع الأيام الى شحناء وعداوات، بين أبناء البلدة الواحدة، وأحيانا داخل الأسرة الواحدة، وهذه الأوضاع يتم التعامل معها بالأسلوب

ثقافي، وجهل بمقاصد الدين، فضلت الأفكار، وزلت الأقدام ومرضت القلوب، وطمغت النزعة المادية على النفوس وأصبح كثير من الناس إلههم هواهم، وشريعتهم شهواتهم، وكان ماكان من حالنا، في هذا الواقع السيء الذي نعيشه في وطننا.

إن اصلاح ذات البين دعوة مستمرة، ورسالة يومية تؤديها الزويا، ولعل من المفيد أن نعرض، في هذا السياق، بعض الحالات، وهي من مساعي الزاوية القاسمية، على مدى الأيام، ومن المؤكد أن لها ما يشبهها في الزوايا الأصلية المتجذرة في المجتمع.

الحالة الأولى : تتلخص في مسعى الصلح بين الأعراش. ومن ذلك، على سبيل المثال، تحقيق الصلح بين فريقين من أقوى الأعراش عدة، وأكبرها عددا، اشتدت الفتنة بينهما، بعد سقوط ضحايا من أبنائهما، بسبب نزاع على الحدود. قديم تجدد، فتمكنت البغضاء من النفوس، وسادت الفريقين روح العداوة،

الصلح بينهم ، وقضى معهم ليلة غراء ،
في أجواء إيمانية تعطرت بذكر الله ،
وتلاوة كتابه ، والاستماع الى هداية نبيه
صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أبناء
البلدة ، من قبلها لا يتزاورون في الأعياد ،
ولا يجتمعون في أفراح ولا في أفراح !!

المثال الرابع : من أزمة منطقة القبائل ،
وقد سخرت الزاوية بشأنها جملة من
الوسائل غايتها تهدئة النفوس واطفاء نار
الفتنة ، وإثارة الإحساس بالمخاطر التي
تهدد الأمة في وحدتها وكيانها ، فمن
خلال زيارات المنطقة ، واستثمار اللقاءات
المتعددة في مقر الزاوية ، مع قدماء الطلبة
، وإخوان الطريقة الرحمانية ، انصبت
جهود الزاوية على تعبئة هذه الإرادات
الخيرية ، ليكونوا دعاة إلى نبذ النزعات
العرقية ، والنزعات الجهوية ، والتصدي
للدعوات المشبوهة المفرقة ، ومقاومة
الحركة التنصرية. وسواء تعلق
الأمر بالمأساة الوطنية أو أزمة
منطقة القبائل ، فقد اتجهت عناية
الزاوية إلى بث قيم الأخوة والتعاون ،
والمحبة والسلام ، مستعينة

المناسب لها ، وكثيرا ما يكلل المسعى
بالتوفيق بين الفريقين ، وينتهى الأمر
بتصالحهم والتئام شملهم بعد تفرقهم ،
وأحيانا بعد طول قطيعتهم ، كما حصل ،
قبل سبع سنوات ، في بلدة انقسم أبناؤها
أفرادا وأسرا ، بسبب الانتخابات ،
واسبتدت بهم العصبية ، وغطت عليهم
النزعة الفردية ، وانحازوا الى فئتين ،
ودامت بينهما القطيعة ، نحو عام ، الى أن
يسر الله الأمر لشيخ الزاوية ، فأصلح
بينهم وكلل مسعاه بالتوفيق ، وشهد
الصلح بينهم مئات المواطنين من البلديات
المجاورة.

المثال الثالث : من بلدة عريقة في منطقة
القبائل ، استمر الخلاف بين فئتين من
أبنائها سنين طويلا ، ولم تفلح المحاولات
المتكررة ، من بعض المصلحين في
التوفيق بينهما ، حتى يئس الناس من ذلك
، أو كادوا ؛ وظنوا أنه قدر محتوم ، إلى
ما شاء الله ، ثم تيسر الصلح ، بفضل الله ،
فقد كان لكلمة شيخ الزاوية أثرها في
نفوسهم ، ولقي مسعاه استجابة لدى
الفريقين ، وتنقل بنفسه إليهم ، لعقد

المصدق أن الله سبحانه ، أعد ثواباً جزيلاً ، يزيد على ثواب الصلاة والصدقة والصيام للباذلين جهدهم في رأب الصدع ، وجمع الشتات وإصلاح فساد القلوب ، وإزالة الضغائن من النفوس ، وإطفاء نار العداوة والفتن واحكام روابط الألفة والأخوة بين المسلمين ، عن أبي الدرداء ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصدقة والصيام؟" قالوا بلى : قال "إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين" وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنها الخصلة الذميمة الذاهبة بخيري الدنيا والآخرة ، إنها حالقة الدين ، لأنها تحلق الإيمان والأخوة والفضيلة ، وتزيل كل خير وهداية ، وتجعل المتنافرين بعيدين عن آداب الإسلام وقيمه ، جاحدين فضله منكبين تعاليمه .

— التذكير بأن الجزائر وطن لجميع أبنائها ، يعيشون في أي بقعة من أرضها ، تتكافأ فيها فرصهم وتتساوى حقوقهم على اختلاف

بنخبة من قدماء طلبتها ، وكبار إخوان الطريقة الرحمانية ، وقد وضعت بين أيديهم وثيقة مرجعية ، تضمنت الدعوة إلى رأب الصدع ، وجمع الكلمة ونشر السلام ، وقد يفيدنا في هذا السياق أن نورد بعض فقرات الوثيقة على سبيل الإعلام :

— التذكير بأن الأخوة هي الرابطة الوثقى بين المسلمين ، تجمعهم بعد تفرق ، وتؤلف بينهم بعد خصام ، ومما يترتب على الأخوة أن يكون الحب والسلام ، والتعاون والوحدة ، هي الأصل في الجماعة المسلمة ، وأن يكون الخلاف هو الاستثناء ، الذي يجب أن يرد إلى أصله فور وقوعه ، محافظة على الكيان العام لجماعة المسلمين ، وإبقاء لعلاقات المودة والإخاء فيما بينهم ، وحفظاً لمجتمعهم من عواقب التفكك والخصام ، تحت تأثير النزوات والاندفاعات . يقول الحق تبارك وتعالى : "إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحو بين أخوانكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون" (الحجرات 10) إن من يصل بين المؤمنين ، ويصلح ذات البين ، يعد عمله أفضل من كثير من القربات . فقد أخبر الصادق

الله ، يوجب الثناء والثواب ، في العاجل والآجل ، يقول سبحانه وتعالى :
 " لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما " (النساء. 114)

إذا كانت إشاعة السلام مدعاة للتوافق والتحابب ، فلا شيء يحل الكراهية محل المحبة ، والشقاق محل لوفاق ، كأمراض القلب واللسان ، وإيقاد الفتن التي تقضي على الأخوة والوئام ، بل هي معاول تهدم المجتمع من الأساس. والذي يعمل لإثارة الفتن ، ويسعى لتنميتها وإشاعتها ، وإنما هو عدو لنفسه ، وعدو للدين والمجتمع والإنسانية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " شر الناس من داراه الناس لشره ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف "

لقد سألتني صحفي ، قبل شهر —

جهاتهم وإنتماءاتهم ، وتعدد ألسنتهم ، وتنوع اختياراتاتهم. لغة القرآن توحد فكرهم وخطابهم ، ورابطة الإسلام تجمعهم وتؤلف بينهم ، وما كان إلا الإسلام وحده ليجمع النفوس المتنافرة وما كان إلا حبل الله يعتصم به الجميع ، فيصبحون بنعمته إخوانا ، وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة الإيمان تصغر إلى جانبها وتمحي الأحقاد التاريخية ، والثارات القبلية ، والنعرات العرقية ، والرايات العنصرية والنزعات الفردية ، والأطماع الشخصية. فيجتمع الصف تحت لواء الله الواحد الأحد ، تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.!

— التذكير بأن الأمة تستطيع أن تستعيد عافيتها وقوتها ، وترتقي إلى أعلى درجات الرفعة والازدهار ، إذا هي تفرغت من شأن نفسها ، وتخلصت من السخائم فيما بينها ، وتطهرت من أدران الحقد والبغضاء ومن أغلال التناحر والشحناء. وفي حوادث الماضي والحاضر ما يغنيننا عن ضرب الأمثال وترديد الأقوال. لهذا كله جعل الشارع الحكيم الإصلاح محببا الى

ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدركه أصحابه ، وعملوا به ، فما ترددوا في تلبية النداء ، بل هانت عليهم أموالهم وأنفسهم ، وأولادهم وأزواجهم ، وعشيرتهم ومساكنهم في سبيل نصرته الحق والدين ، فكانت للأمة في سيرتهم ومواقفهم ، دروس واعتبار.

إن الأمل وطيد في أن يقف أبناء الجزائر الأحرار ، صفا واحدا على قلب رجل واحد متعاونين على تهيئة الظروف التي تتحقق المصالحة والسلام في ظلالها ، ويظهر بها الحق ، ويقام العدل في ربوعنا. والخطوة الأولى نحو هذا الهدف النبيل ، أن نصلح ما بيننا وبين الخالق سبحانه بالوفاء بعهده ، والإخلاص لدينه ، وأن نغير ما بأنفسنا ، لنكون أهلا للتغيير والإصلاح ، وأن نتصالح مع تاريخنا ، ومع ذاتنا ومقومات أمتنا بالوفاء لمبادئ نوفمبر ، ولتضحيات شعبنا ، وعهد شهدائنا الأبرار.

والله نسأل أن يجعل يومنا خيرا من أمسنا ، وغدا خيرا من يومنا وأن يسدد رأينا ، ويجمع على الحق والهدى كلمتنا.

أنظر إلى من يعارض مسعى المصالحة الوطنية ، أو يتحفظ عليه ، فبدأت الجواب بسؤال : من له مصلحة في عرقلة مسعى المصالحة ؟ من ذا الذي لا يرضيه أن تعود الألفة بين أبناء الوطن الواحد ، ويتحقق السلام ، وتسود روح الأخوة و الوثام وقلت إن الذي يعرقل هذا المسعى ، أو يتخذ منه موقفا معاديا ، هو من حيث يدري أولا يدري ، حليف للشيطان. فإثارة الفتنة والتحريض بين الناس والتمكين لعوامل الخلاف والنزاع في مجتمعهم ، هي من مشروع إبليس وبرنامجه ومسعاها إلى يوم القيامة ، فلئن يئأس الشيطان من صد الناس عن عبادة الله وتوحيده ، فلن يئأس من التحريض بينهم ، وتمزيق صفوفهم ، والتمكين للبغضاء والضغائن في نفوسهم ، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم.

إن من معاني التي نستهلها من القيم الإسلامية أن تقديم المصلحة العامة على المنافع الخاصة ، ضرب من التضحية والفداء يقتضيه بناء الأمة ، والحفاظ على وحدتها وتماسكها وسلامة كيائها ، ذلك